يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد اوتي خيراً كثيراً وما يذكر الا اولوا الالباب

المنار ١٣١٥

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه اولئك الذين هداهم الله واولئك هم اولو الالباب

(قال عليه الصلاة والسلام: ان للاسلام صوى و «مناراً» كمنار الطريق)

(مصر في يوم الخميس ١١ جمادى الاولى سنة ١٣١٨ — ٦ سبتمبر (ايلول) سنة ١٩٠٠)

ميزان الايمان وسلم الامم

(أو السلف والخلف في الاسلام *)

الوعود الالهية بنصر المؤمنين وبان الارض يرثها الصالحون . اثبات العزة للمؤمنين . آيات الوعد محكمة لا تقبل التأويل . صدقها على سلف المسلمين . حالة الاسلام في الصدر الاول . حال المسلمين اليوم . عدم صدق الآيات عليهم . السبب فيه تغيير ما بانفسهم . ماهو التغيير والمتغير؟ مابه تقوم الدول والامم . علامة المؤمن الصادق وعلامة المنافق . الوحدة الاسلامية . حث العلماء على القيام بها .

« إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ . ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ »

تلك آيات الكتاب الحكيم . تهدى الى الحق والى طريق مستقيم ولا يرتاب فيها الا القوم الضالون . هل يخلف الله وعده وهو اصدق من وعد واقدر من وفى ؟ هل كذب الله رسله ؟ هل وَدَعَ انبياءه وقلاهم ؟

(*) من مقالات العروة الوثقى الحكيمة والعنوان لنا

هل غش خلقه وسلك بهم طريق الضلال ؟ نعوذ بالله . هل أنزل الآيات البينات لغواً وعبثاً ؟ هل افترت عليه رسله كذباً ؟ هل اختلقوا عليه افكاً ؟ هل خاطب الله عبيده برموز لا يفهمونها واشارات لا يدركونها ؟ هل دعاهم اليه بما لا يعقلون ؟ نستغفر الله . أليس قد أنزل القرآن عربياً غير ذى عوج وفصل فيه كل أمر وأودعه تبياناً لكل شيء ؟ تقدست صفاته وتعالى عما يقول الظالمون علوًّا كبيراً . هو الصادق فى وعده ووعيده ما اتخذ رسولا كذاباً ولا اتى شيئاً عبثاً وما هدانا الا سبيل الرشاد ولا تبديل لآياته تزول السموات والارض ولا يزول حكم من احكام كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه

يقول الله « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها عبادي الصالحون » ويقول « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » وقال : « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » وقال : « ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً » هذا ما وعد الله فى محكم الآيات مما لا يقبل تأويلا . ولا ينال هذه الآيات بالتأويل الا من ضل عن السبيل ورام تحريف الكلم عن مواضعه . هذا عهده الى هذه الأمة المرحومة ولن يخلف الله عهده وعدها بالنصر والعزة وعلو الكلمة ومهد لها سبيل ما وعدها الى يوم القيامة وما جعل لمجدها أمداً ولا لعزتها حداً

هذه امة انشأها الله عن قلة ورفع شأنها الى ذروة العلاء حتى ثبتت اقدامها على قنن الشامخات ودكت لعظمتها عوالى الراسيات وانشقت لهيبتها مرائر الضاريات وذابت للرعب منها اعشار القلوب . هال ظهورها الهائل كل نفس وتحير فى سببه كل عقل واهتدى الى السبب أهل الحق فقالوا :

قوم كانوا مع الله فكان الله معهم . جماعة قاموا بنصر الله واسترشدوا بسنته فأمدهم بنصر من عنده . هذه أمة كانت فى نشأتها فاقدة الذخائر معوزة من الاسلحة وعدد القتال فاخترقت صفوف الأمم واختطت ديارها ولا دفعتها ابراج المجوس وخنادقهم ولا صدتها قلاع الرومان ومعاقلهم ولا عاقها صعوبة الممالك ولا أثّر فى همتها اختلاف الاهوية ولا فعل فى نفوسها غزارة الثروة عند من سواها ولا راعها جلالة ملوكهم وقدم بيوتهم ولا تنوع صنائعهم ولا سعة دائرة فنونهم ولا عاق سيرها احكام القوانين ولا تنظيم الشرائع ولا تقلب غيرها من الامم فى فنون السياسة . كانت تطرق ديار القوم فيحقرون امرها ويستهينون بها وما كان يخطر ببال احد ان هذه الشرذمة القليلة تزعزع اركان تلك الدول العظيمة وتمحو اسماءها من لوح المجد وما كان يختلج بصدر ان هذه العصابة الصغيرة تقهر تلك الامم الكبيرة وتمكن فى نفوسها عقائد دينها وتخضعها لاوامرها وعاداتها وشرائعها لكن كان كل ذلك ونالت تلك الامة المرحومة على ضعفها ما لم تنله امة سواها . نعم قوم صدقوا ما عاهدوا الله عليه فوفّاهم أجورهم مجداً فى الدنيا وسعادة فى الآخرة .

هذه الامة يبلغ عددها اليوم زهاء مائتى مليون من النفوس (*) واراضيها آخذة من المحيط الاتلانتيكى الى احشاء بلاد الصين تربة طيبة ومنابت خصبة وديار رحبة ومع ذلك نرى بلادها منهوبة واموالها مسلوبة تتغلب الاجانب على شعوب هذه الامة شعباً شعباً . ويتقاسمون اراضيها

(*) ثبت بالاحصاء الاخير ان المسلمين ثلاثمائة مليون او يزيدون وما فى المقالة كان بحسب الاحصاء السابق

قطعة بعد قطعة ولم يبق لها كلمة تسمع ولا امر يطاع حتى ان الباقين من ملوكها يصبحون كل يوم فى ملة ويمسون فى كربة مدلهمة ضاقت اوعيتهم عن سعة الكوارث وصار الخوف عليهم أشد من الرجاء لهم . هذه هى الامة التى كانت الدول العظام يؤدين لها الجزية عن يد وهن صاغرات استبقاء لحياتهن وملوكها فى هذه الايام يرون بقاءهم فى التزلف الى تلك الدول الاجنبية . بالمصيبة وبالمرزية . أليس هذا بمخطب جلل ؟ أليس هذا ببلاء نزل ؟ ماسبب هذا الهبوط وما علة هذا الانحطاط ؟ هل نسيء الظن بالوعود الالهية ؟ معاذ الله . هل نستيئس من رحمة الله ونظن ان قد كذب علينا ؟ نعوذ بالله . هل نرتاب فى وعده بنصرنا بعد ما اكده لنا ؟ حاشاه سبحانه . لا كان شيء من ذلك ولن يكون فعلينا ان ننظر الى انفسنا ولا لوم لنا الا عليها . ان الله تعالى برحمته قد وضع لسير الامم سنناً متبعة ثم قال « ولن تجد لسنة الله تبديلاً »

ارشدنا الله تعالى فى محكم آياته الى ان الامم ما سقطت من عرش عزها ولا بادت ومحي اسمها من لوح الوجود الا بعد نكوبها عن تلك السنن التى سنها الله على اساس الحكمة البالغة . ان الله لا يغير ما بقوم من عزة وسلطان ورفاهة وخفض عيش وامن وراحة حتى يغير اولئك القوم ما بأنفسهم من نور العقل وصحة الفكر واشراق البصيرة والاعتبار بأفعال الله فى الامم السابقة والتدبر فى احوال الذين جاروا عن صراط الله فهلكوا وحل بهم الدمار ثم الفناء لعدولهم عن سنة العدل وخروجهم عن طريق البصيرة والحكمة . حادوا عن الاستقامة فى الرأى . والصدق فى القول والسلامة فى الصدور والعفة عن الشهوات والحمية على الحق والقيام

بنصره والتعاون على حمايته . خذلوا العدل ولم يجمعوا همهم على اعلاء كلمته واتبعوا الاهوآء الباطلة وانكبوا على الشهوات الفانية واتوا عظائم المنكرات خارت عزائمهم فشحوا ببذل مهجهم فى حفظ السنن العادلة واختاروا الحياة فى الباطل على الموت فى نصرة الحق فأخذهم الله بذنوبهم وجعلهم عبرة للمعتبرين . هكذا جعل الله بقآء الامم ونماءها فى التحلى بالفضائل التى اشرنا اليها وجعل هلاكها ودمارها فى التخلى عنها . سنة ثابتة لا تختلف باختلاف الامم ولا تتبدل بتبدل الاجيال كسنته تعالى فى الخلق والايجاد وتقدير الارزاق وتحديد الآجال . علينا ان نرجع الى قلوبنا ونمتحن مداركنا ونسبر اخلاقنا ونلاحظ مسالك سيرنا لنعلم هل نحن على سيرة الذين سبقونا بالايمان هل نحن نقتفي اثر السلف الصالح هل غيّر الله ما بنا قبل ان نغير ما بانفسنا وخالف فينا حكمه وبدل فى امرنا سنته ؟ حاشاه وتعالى عما يصفون بل صدقنا الله وعده حتى اذا فشلنا وتنازعنا فى الامر وعصيناه من بعد ما ارى اسلافنا مايحبون واعجبتنا كثرتنا فلم تغن عنا شيئاً فبدل عزنا بالذل وسمونا بالانحطاط وغنانا بالفقر وسيادتنا بالعبودية : نبذنا اوامر الله ظهريا وتخاذلنا عن نصره فجازانا بسوء اعمالنا ولم يبق لنا سبيل الى النجاة سوى التوبة والانابة اليه . كيف لا نلوم انفسنا ونحن نرى الاجانب عنا يغتصبون ديارنا ويستذلون اهلنا ويسفكون دمآء الابرياء من اخواننا ولا نرى فى احد منا حراكا

هذا العدد الوافر والسواد الاعظم من هذه الملة لا يبذلون فى الدفاع عن اوطانهم وانفسهم شيئاً من فضول اموالهم يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة كل واحد منهم يود لو يعيش الف سنة وان كان غذاؤه الذلة

وكساؤه المسكنة ومسكنه الهوان . تفرقت كلمتنا شرقاً وغرباً وكاد يقطع ما بيننا لايحنّ اخ لاخيه ولايهتم جار بأمر جاره ولا يرقب احدنا في الآخر إلاًّ ولا ذمة ولا نحترم شعائر ديننا ولا ندافع عن حوزته ولا نعزّزه بما نبذل من اموالنا وارواحنا حسبما امرنا . ايحسب اللابسون لباس المؤمنين ان الله يرضى منهم بما يظهر على الالسنة ولا يمس سواد القلوب ؟ هل يرضى منهم بان يعبدوه على حرف فان اصابهم خير اطمأنوا به وان اصابتهم فتنة انقلبوا على وجوههم خسروا الدنيا والآخرة ؟ هل ظنوا ان لا يبتلي الله ما في صدورهم ولا يمحص ما في قلوبهم ؟ الا يعلمون ان الله لايذر المؤمنين على ما هم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ؟ هل نسوا ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم للقيام بنصره واعلاء كلمته لا يبخلون في سبيله بمال ولا يشحون بنفس ؟ فهل لمؤمن بعد هذا ان يزعم نفسه مؤمناً وهو لم يخط خطوة في سبيل الايمان لا بماله ولا بروحه . انما المؤمنون هم الذين اذا قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم لا يزيدهم ذلك الا ايماناً وثباتاً ويقولون في اقدامهم «حسبنا الله ونعم الوكيل» كيف يخشى الموت مؤمن وهو يعلم ان المقتول في سبيل الله حي يرزق عند ربه ممتع بالسعادة الابدية في نعمة من الله ورضوان ؟ كيف يخاف مؤمن من غير الله والله يقول «فلا تخافوهم وخافون ان كنتم مؤمنين»

فلينظر كلٌّ الى نفسه ولا يتبع وسواس الشيطان وليمتحن كل واحد قلبه قبل ان يأتي يوم لا تنفع فيه خلة ولا شفاعة وليطبق بين صفاته وبين ما وصف الله به المؤمنين وما جعله من خصائص الايمان فلو فعل كل منا ذلك لرأينا عدل الله فينا واهتدينا . ياسبحان الله ان هذه امتنا امة واحدة

والعمل فى صيانتها من الاعداء اهم فرض من فروض الدين عند حصول الاعتداء . يثبت ذلك نصّ الكتاب العزيز واجماع الامة سلفاً وخلفاً فالنا نرى الاجانب يصولون على البلاد الاسلامية صولة بعد صولة ويستولون عليها دولة بعد دولة والمتسمون بسمة الاسلام آهلون لكل ارض متمكنون بكل قطر ولا تأخذهم على الدين نعرة ولا تستفزهم للدفاع عنه حمية . ألا يا اهل القرآن لستم على شئ حتى تقيموا القرآن وتعملوا بما فيه من الاوامر والنواهى وتتخذوه اماماً لكم فى جميع اعمالكم مع مراعاة الحكمة فى العمل كما كان سلفكم الصالح . ألا يا اهل القرآن هذا كتابكم فاقرأوا منه « فاذا انزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون اليك نظر المغشيّ عليه من الموت » الا تعلمون فيمن نزلت هذه الآية ؟ نزلت فى وصف من لا ايمان لهم . هل يسُرُّ مسلماً ان يتناوله الوصف المشار اليه فى الآية الكريمة او غرّ كثيراً من المدعين للايمان مازين لهم من سوء اعمالهم وماحسنته لديهم اهواؤهم « أفلا يتدبرون القرآن ام على قلوب اقفالها » اقول ولا اخشى نكيراً لايمس الايمان قلب شخص الا ويكون اول اعماله تقديم ماله وروحه فى سبيل الايمان لا يراعى فى ذلك عذراً ولا تعلة وكل اعتذار فى القعود عن نصرة الله فهو آية النفاق وعلامة البعد عن الله . . . . . .

مع هذا كله نقول ان الخير فى هذه الامة الى يوم القيامة كما جاءنا به نبأ النبوّة وهذا الانحراف الذى نراه اليوم نرجو ان يكون عارضاً يزول ولو قام العلماء الاتقياء وادوا ما عليهم من النصيحة لله والرسول وللمؤمنين لرأيت الحق يسمو والباطل يسفل ولرأيت نوراً يبهر الابصار واعمالا تحار

فيها الافكار وان الحركة التي نحسها من نفوس المسلمين في اغلب الاقطار هذه الايام تبشرنا بان الله قد اعدّ النفوس لصيحة حق يجمع بها كلمة المسلمين ويوحّد بها بين جميع الموحدين ونرجو ان يكون العمل قريباً فان فعل المسلمون ذلك واجمعوا امرهم للقيام بما اوجب الله عليهم صحت لهم الاوبة ونصحت منهم التوبة وعفا الله عنهم « والله ذو فضل على المؤمنين » فعلى العلماء ان يسارعوا الى هذا الخير وهو الخير كله — جمع كلمة المسلمين — والفضل كل الفضل لمن يبدأ منهم في العمل « ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليّاً مرشدا »

(المنار) ليس المراد بجمع كلمة المسلمين ان يكون لهم سلطان واحد وحكومة واحدة فقد صرح صاحب المقالة في مقالة اخرى بانه لا يعني بجمع كلمة المسلمين ان يكون امامهم الحاكم واحداً وقال ان هذا ربما كان متعذرا وانما اعني ان يكون امامهم القرآن . وليعتبر بما في المقالة من الآيات البينات على وجوب العناية بأمر الحرب المسلمون الذين يعدون انتظام ابناءهم في سلك الجهادية من اكبر المصائب ويحتالون في الهروب منها حتى باتلاف بعض الاعضاء ويتوسلون الى أضرحة الاولياء والصالحين لانجائهم من ذلك فيا للفضيحة ويا للبعد عن الاسلام . وظاهر انه لا يمكن لامة ان تحفظ وجودها وتصون استقلالها الا بالقوة الحربية والامة التي لا قوة لها ولا استقلال تكون في اسوأ الاحوال سواء كان ذلك في الآداب والفضائل او في الاعمال والصنائع النافعة بل لا يمكن دفع مصائب الحرب الا بالاستعداد الكامل للحرب